

الفصل الأول

ما هو التصوف ؟

● أصل كلمة التصوف :

اختلف الناس فى أصل كلمة « التصوف » .. فمن قائل بأنها قد اشتقت من « الصوف » .. بعد أن رأى الصوفيين يخالفون الناس ويلبسون الصوف بدلا من الثياب الفاخرة تتشفا وزهدا !!

ومن قائل بأن الكلمة اشتقت من « الصفاء » .. بمعنى أن قلب المرید يصفو ويتطهر باطنه وظاهره عن مخالفة ربه .

وقيل : بأنها مأخوذة من « الصفة » التى ينسب اليها فقراء الصحابة على عهد الرسول ﷺ .. وعرفوا فى التاريخ بأهل الصفة .. وفى هذا يقول القشيري : « هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة .. فيقال : رجل صوفى ، وللجماعة : صوفية .. ومن يتوصل الى ذلك يقال له : متصوف ، وللجماعة : المتصوفة .

وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق .. والأظهر فيه أنه كاللقب ..

فأما قول من قال : انه من الصوف .. وتصوف الرجل اذا لبس الصوف كما يقال : تقمص اذا لبس التميمى .. فذلك وجه ، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف .

ومن قال : أنهم منسوبون الى صفة مسجد رسول الله ﷺ ، فالنسبة الى الصفة لا تجيء على نحو الصوفى ..

ومن قال : انه من الصفاء .. فاشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد فى مقتضى اللغة ..

وقول من قال : انه مشتق من المصف .. فكأنهم فى المصف الأول
من حيث المحاضرة من الله تعالى .. فالمعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضى
هذه النسبة الى المصف ..

ثم ان هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج فى تعيينهم الى قياس
لفظ واستحقاق اشتقاق .

تكلم الناس فى التصوف ما معناه ؟ .. وفى الصوفى من هو ؟ ..
فكل عبر بما وقع له .. واستقصاء جميعه يخرجنا عن المقصود
من الإيجاز « (١) .

وهكذا .. لم يبين لنا القشيري - رحمه الله - أصل هذه الكلمة
بعد أن استعرض جميع الأقوال فيها ..

● أما الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازانى - شيخ مشايخ
الطرق الصوفية - فإنه يلقى الضوء على أصل هذه الكلمة بعد أن
يقرب الينا معناها ، فيقول تحت عنوان : « خواطر صوفية » (٢) :

« حين ظهرت حركة التخصص فى العلوم فى العالم الاسلامى -
حوالى القرن الثالث الهجرى - تخصص فريق من علماء المسلمين فى
دراسة العقيدة من حيث تقريرها على وجه عقلى .. ومن حيث الدفاع
عنها ضد الآراء المخالفة لها .. فعرف هؤلاء العلماء باسم علماء التوحيد ،
أو الكلام .. أو علماء أصول الدين ..

وظهر نفر آخر من العلماء .. اقتصوا بدراسة الأحكام العملية ،
وكيفية استنباط هذه الأحكام من أدلتها ، وهى : القرآن والسنة
والاجماع والقياس .. وعرف هؤلاء باسم الفقهاء .. وعرف عملهم
باسم علم الفقه ..

(١) الرسالة القشيرية ، ط . مطبعة التقدم العلمية ، ١٣٤٦ هـ ،

ص ١٢٦

(٢) انظر مجلة التصوف الاسلامى - العدد ٧٠ - ربيع الأول

سنة ١٤٠٥ هـ (ديسمبر ١٩٨٤ م) ص ٥ - ٧

وفي نفس الوقت .. ظهر في العالم الاسلامي علماء آثروا أن يخصصوا جهودهم لدراسة الأخلاق .. ولكن كانت هذه الدراسة من نوع خاص .. فلم تكن نظرية بحتة ، وإنما اقترنت بالتجربة والذوق ..

وقالوا : ان الأخلاق هي روح الدين .. ولكي يكون الانسان مسلما صحيح الايمان صحيح العمل ، يتعين عليه أن يتوخى الأهداف الأخلاقية ، وأن يتحقق في عبادته وسلوكه ، وفي أقواله وفي أحواله .. بما كان عليه المصطفى عليه الصلاة والسلام ..

ولهذا .. اتجهوا الى البحث العميق في النفس الانسانية وقواها وأمراضها .. وكيفية علاج هذه الأمراض ، وكيفية السلوك الى الله بوجه عام .. مع الميل الى ما كان عليه السلف من ثقيل وزهد في كثير من مباحج الحياة التي يقبل عليها العاديون من الناس ..

وهؤلاء .. عرفوا — منذ القرن الثالث الهجري — باسم الصوفية ، وعرف علمهم باسم علم التصوف ..

ودونوا علومهم في ذلك الوقت .. فكتب المحاسبى (ت ٢٤٣ هـ) رسائل في محاسبة النفس .. وكتب الجنيد (ت ٢٩٧ هـ) رسائل متعددة .. وكتب كثير غيرهم ، وكانت هذه الصورة الأولى لمؤلفات الصوفية الأوائل .. وكانوا جميعا علماء اشتهروا بعلوم الشريعة » ..

ثم يقول فضيلته بعد هذا التمهيد :

« ولكن .. قد يسأل سائل هنا : لماذا ظهرت هذه التسمية .. تسمية التصوف أو الصوفية ؟

والاجابة على هذا السؤال من الناحية العلمية هي الاجابة التي أجاب بها التشيرى في الرسالة .. قال : لقد كان جيل المسلمين ممن صحبوا النبي ﷺ يجدون شرفا لا يدانيه شرف في أن يسموا بالصحابة .. وكذلك جيل التابعين ، كانوا يرون شرفا لا يدانيه شرف في أن يطلق عليهم هذا الاسم ..

ثم بانتضاء جيل الصحابة والتابعين .. عرف، المقبلون على العبادة ..
الترسمون خطى النبي ﷺ وصحابته بأسماء مختلفة ..

عرفوا تارة باسم الزهاد .. وتارة باسم البكائين — لأنهم كانوا
من فرط ايمانهم يبيكون بين الحين والآخر لخشيتهم وخوفهم من الله —
.. وعرفوا تارة باسم المنسك .. ثم عرفوا أخيرا باسم الصوفية ..
وقبل ذلك كان كثير منهم يلبس الصوف اظهارا للزهد والتقشف » .

الدكتور التفتازانى — هنا — يرجع أصل التسمية الى أن الكثير
منهم كان يلبس الصوف اظهارا منهم للزهد والتقشف .. ولكن القشيري
— كما تقدم — مع اقراره بهذا الوجه ينفي عن القوم اختصاصهم
بلبس الصوف ..

ثم يقول الدكتور التفتازانى : « وقيل : سموا صوفية نسبة الى
« الصفاء » .. حتى أن أبا الفتح البستي يقول : تتازع الناس في
الصوفى واختلفوا فيه .. وظنوه مشتقا من الصوف ، ولست أنحل هذا
الاسم غير : فنى صافى فصوفى : حتى لقب الصوفى ..

وقال البعض : انهم نسبة الى أهل الصفة من الصحابة رضوان
الله عليهم .. ولكن النسبة الى أهل الصفة : صفى ..

ثم نجد كثيرا من أوائل الصوفية لم يعودوا يربطون بين لبس
الصوف وبين التصوف من حيث هو خلق وسلوك .. وقالوا ان لبس
الصوف قد يكون لباس شهرة ، ولباس الشهرة منهي عنه » ..

نرى الدكتور التفتازانى هنا .. يتفق مع القشيري في نفي نسبة
الصوفية الى أهل الصفة .. وان كان يميل الى قول « البستي » بأنه
مشتق من الصفاء ..

ويختتم الدكتور كلمته بقوله : « هكذا كان الأوائل .. اذن التسمية
حادثه ، ولكن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة ،
وحياة النبي ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم » ..

● بينما يرى الدكتور ابراهيم هلال : أن كلمة صوفى بمعناها عند صوفية المسلمين .. هي نفس كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية .. التي كانت تطلق عند قدماء اليونان على مذهب روحى يعتقد الفسك والزهاد السابقون قبل الاسلام بعدة قرون .

ويدل بهذا الرأى على أن التصوف فى الاسلام .. هو استيراد من خارج الاسلام وليس من صميمه .. مستندا فى تدليله بما ورد فى دائرة المعارف البريطانية من أن « الثيوصوفيين » كانوا معروفين فى أزمان بعيدة .. وكانوا يزهدون فى الدنيا وينقطعون الى النسك والعبادة ، واستنزال الحكمة الالهية على قلوبهم .. وأن هذه الكلمة مركبة من لفظين تركيبيا مزجيا .. وهما لفظ « ثيو » ومعناه : « اله » ، و « صوفيا » ومعناه : « الحكمة » ..

أى أن أولئك القوم كانوا بزهدهم وعبادتهم يتطلعون الى اكتساب الحكمة الربانية من الله رأسا .. فهناك تشابه كبير بينهم وبين المتصوفة من حيث اتحاد الواسطة والغاية (٣) .

● مفهوم التصوف عند الصوفية :

التصوف فى عمومه — كما يراه الصوفية — : « هو السير فى طريق الزهد .. والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها .. وأخذ النفس بأسلوب من التقشف وأنواع من العبادة والأوراد والجوع والسهر .. فى صلاة أو تلاوة حتى يضعف فى الانسان الجانب الجسدى ، ويقوى فيه الجانب النفسى أو الروحى ..

فهو إخضاع الجسد للنفس بهذا الطريق المتقدم .. سعيا الى تحقيق الكمال الأخلاقى للنفس .. والى معرفة الذات الالهية وكمالاتها .. وهو ما يعبرون عنه بمعرفة الحقيقة » (٤) .

(٣) التصوف الاسلامى بين الدين والفلسفة للدكتور ابراهيم هلال ، نشر مكتبة النهضة العربية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠ وما بعدها ..

(٤) المرجع السابق ص ١ وما بعدها ..

وقيل : « ان مفهوم التصوف عند الصوفيين هو : « ارسال النفس مع الله على ما يريد الله » ..

وقيل : هو مناجاة القلب ومحادثة الروح .. وفى هذه المنجاة طهارة لمن شاء أن يتطهر .. وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والذنس .. وفى تلك المحادثة عروج الى سماء النور والملائكة .. وصعود الى عالم الفيض والالهام ..

وما هذا الحديث والفجوى .. الا ضرب من التأمل النظرى ، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض .. بيد أن الجسم والنفس متلازمان ، وتوأمين لا ينفصلان .. ولا سبيل الى تهذيب أحدهما بدون الآخر .. فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة .. فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن .. فالتصوف اذن - فى مفهومهم - فكر وعمل ، ودراسة وسلوك^(٥) .

ويقول الامام القشيري : « الصفاء محمود بكل لسان .. ضده الكدورة ، وهى مذمومة » ..

كما يقول : « جعل الله هذه الطائفة صفوة اوليائه .. وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم .. وجعل قلوبهم معادن أسرارهم ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنوارهم .. ففهم الغيب للخلق .. والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق .. صفاهم من كدورات البشرية .. ورقاهم الى محال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية .. ووقفهم للقيام بأداب العبودية .. وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية ..

فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف .. وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليل والتصرف .. ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ، ونعت الانكسار .. ولم يتكلموا على ما حصل

(٥) التفسير والمفسرون ، للدكتور محمد حسين الذهبي - نشر مكتبة

منهم من الأعمال ، أو صفا لهم من الأحوال .. علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار ما يشاء من العبيد .. لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق .. ثوابه ابتداء فضل ، وعذابه حكم بعدل .. وأمره قضاء فصل « (٦) » .

والامام القشيري .. من أئمة الصوفية المعتدلين .. ولهذا نراه ينقل عن أقطاب الصوفية آراءهم للتعريف بمعنى الصوفية .. فينقل عن أبي محمد الحريري قوله : « التصوف : هو الدخول في كل خلق سنى ، والخروج من كل خلق دنى » ..

وقول الجنيد : هو أن يمنعك الحق عنك ويحيبك به ..
وسئل الحسين بن منصور الحلاج عن الصوفى فقال : وحداني
الذات .. لا يقبله أحد ولا يقبل أحدا ..

ويقول أبو حمزة البغدادي : علامة الصوفى الصادق : أن يفنقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة .. وعلامة الصوفى الكاذب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشتهر بعد الخفاء ..

وعندما سئل عمر بن عثمان المكي عن التصوف . قال : أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به في الوقت ..

ويقول محمد بن علي القصاب : التصوف أخلاق كريمة ، ظهرت في زمان كريم ، من رجل كريم مع قوم كرام ..

وسئل سمنون عن التصوف فقال : أن لا تملك شيئا ولا يملكك شيء ..

ويقول الجنيد : هو أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة ..

ويقول رويم بن أحمد البغدادي : التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبدل والايثار .. وترك التعرض والاختيار ..

وسئل عن التصوف فقال : هو استرسال النفس مع الله على ما يريد ••

كما يقول معروف الكرخي : هو الأخذ بالعقائق ، واليأس مما في أيدي الخلائق « (٧) •

ويعتقد الصوفيون أن مضمون التصوف مردود الى شواهد من القرآن والسنة •• وحياة النبي ﷺ ، وحياة أصحابه رضوان الله عليهم ••

وشواهد القرآن عندهم •• تنحصر في قصة الخضر مع كليم الله موسى عليهما السلام •• ويعتقدون أن الخضر كان ولياً آتاه الله علماً من لدنه •• ويستدلون بذلك على أن الولي أعلم من النبي •• مادام موسى عليه السلام - وهو نبي - يذهب الى الخضر ليتعلم منه •• وقد تعلم منه بالمثل علماً كان يجهله !!

ويدل ابن كثير على نبوة الخضر عليه السلام بقول الله تعالى : « رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري » (٨) •• ففى هذا الدليل على أنه كان نبياً ، وأنه ما فعل شيئاً من تلقاء نفسه •• بل بأمر ربه فهو نبي •• وقيل رسول ••

يقول ابن كثير : « دل سياق القصة على نبوته من وجوه : أحدها قوله تعالى : « فوجدنا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلماها من لدنا علماً » (٩) وفى هذا دليل على نبوته ••

الذاني قول موسى : « هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً • قال انك لن تستطيع معي صبرا • وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً • قال مستجديني ان شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً • قال فان اتبعتنى فلا تسألننى عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً » (١٠) •

(٧) الرسالة القشيرية - مرجع سابق ، ص ١٢٦ ، ١٢٧

(٩) الكهف : ٦٥

(٨) الكهف : ٨٢

(١٠) الكهف : ٦٦ - ٧٠

فلو كان وليا وليس بنبي لم يخاطبه بهذه المخاطبة .. ولم يرد على موسى هذا الرد ..

بل موسى انما سأل صحبته لينال ما عنده من العلم الذى اختصه الله به دونه .. فلو كان غير نبي لم يكن معصوما .. ولم تكن لموسى - وهو نبي عظيم ورسول كريم واجب العصمة - كبير رغبة ولا عظيم طلبه فى علم ولى غير واجب العصمة .. ولما عزم على الذهاب اليه والفتيش عنه .. ولو أنه أمضى حقا من الثمان - قيل ثمانين سنة - ثم لما اجتمع به تواضع له وعظمه .. واتبعه فى صورة مستفيد منه ..

فدل ذلك على أنه نبي مثله يوحى اليه كما يوحى اليه .. وقد خص من العلوم اللادنية والأسرار النبوية بما لم يطلع الله عليه موسى الكليم .. نبي بنى اسرائيل الكريم .. وقد اهتمج بهذا المسلك الرمانى على نبوة الخضر عليه السلام ..

الثالث : أن الخضر أقدم على قتل ذلك الغلام .. وما ذلك الا للوحى اليه من الملك العلام ..

وهذا دليل على نبوته .. وبرهان ظاهر على عصمته ، لأن المولى لا يجوز له الاقدام على قتل النفوس بمجرد ما يلقى فى خاده .. لأن خاطره ليس بواجب العصمة ، اذ يجوز عليه الخطأ بالاتفاق ..

ولما أقدم الخضر على قتل ذلك الغلام الذى لم يبلغ الحلم .. علماً منه بأنه اذا بلغ يكفر ويحمل أبويه على الكفر لشدة محبتهما له فيتبعانه عليه .. ففى قتله مصلحة عظيمة تربو على بقاء مهجته .. صيانته لأبويه عن الوقوع فى الكفر وعقوبته .. دل ذلك على نبوته وأنه مؤيد من الله بعصمته ..

وقد رأيت - يقول ابن كثير - الشيخ أبا الفرج ابن الجوزى طرق هذا المسلك بعينه فى الاحتجاج على نبوة الخضر وصححه .. وحكى الاحتجاج عليه الرمانى أيضا ..

الرابع : أنه لما فسر الخضر - عليه السلام - تأويل الأذاعيل

لموسى ووضح له عن حقيقة أمره وجلي .. قال بعد ذلك كله : « رحمة من ربك ، وما فعلته عن أمري » (١١) .. يعنى ما فعلته من تلقاء نفسى .. بل أمر أمرت به وأوحى الى فيه .. فدللت هذه الوجوه على نبوته « (١٢) .

لقد دلتنا قصة الخضر عليه السلام كما رواها القرآن الكريم .. على أن الله تعالى قد أطلعته على شئ من الغيب .. وما كان الله ليطلع على هذا الغيب الا الرسل عليهم السلام .. يقول تعالى : « وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » (١٣) .

كما يقول جل شأنه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه احدا الا من ارتضى من رسول » (١٤) .

والخضر عليه السلام كان نبيا ولم يكن وليا .. والاستدلال على أن مضمون التصوف مردود الى هذا الشاهد من القرآن فى غير موضعه .. لأن القاعدة الأصولية تقول : اذا انتفى الدليل انتفى المدلول ، وبطل - بالتالى - المستدل عليه لبطلان المستدل به ..

أما شواهد السنة - كما يرونها - ففى أن الرسول ﷺ دخل مرارا على أهل الصفة ورآهم يتذاكرون العلم ويقرأون القرآن ويذكرون الله فلم ينكر عليهم مقامهم بمسجده وانقطاعهم الى العبادة والزهد فى الدنيا ومتعها .. فهم بذلك يرون أن انشاء الدور التى يقطع فيها الناس للعبادة ويقوم بشئونهم اخوانهم القادرون من المسلمين ليس جديدا فى الاسلام ..

نقول : جاء فى دائرة المعارف الاسلامية عند التعليق على مادة « تصوف » - بالجزء التاسع طبع دار الشعب - : « أما الصفة التى ينتسب اليها أهل الصفة من أصحاب النبى ﷺ - فكانت فى مؤخرة

(١١) الكهف : ٨٢

(١٢) قصص الانبياء - لابن كثير ، نشر دار التراث العربى ، ١٩٨١ ،

ص ٤٥٢ - ٤٥٣

(١٣) آل عمران : ١٧٩ ، (١٤) الجن : ٢٦ ، ٢٧

مسجد النبي ﷺ في شمال المسجد بالمدينة النبوية .. كان يأوى اليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوى اليه .. ويكثر المهاجرون الى المدينة من الأغنياء والفقراء ، والأهلية والعذاب .. فكان من لم يتيسر له مكان يأوى اليه ، يأوى الى تلك الصفة التي في المسجد .. ولم يكن جميع أهل الصفة يجتمعون في وقت واحد ، بل منهم من يتأهل أو ينتقل الى مكان آخر يتيسر له ، ويجيء ناس بعد ناس .. وكانوا تارة يكترون وتارة يقلون .. وجملة من أوى الى الصفة من الصحابة مع تفرقهم فقد قيل : كانوا نحو أربعمائة من الصحابة ، وقيل كانوا أكثر من ذلك ..

وكان فقراء المسلمين من أهل الصفة وغيرهم يكتسبون عند امكان الاكتساب الذي لا يصددهم عما هو أوجب الى الله من الكسب .. وأما اذا أحصروا في سبيل الله عن الكسب فكانوا يقدمون ما هو أقرب الى الله ورسوله .. وكان يبعث اليهم النبي ﷺ بما يكون عنده ، وان الغالب عليهم كان الحاجة ، لا يقوم ما يقدرون عليه من الكسب بما يحتاجون اليه من الرزق « ا ه .

أهل الصفة - اذن - هم نفر من الفقراء والمساكين الذين هاجروا الى المدينة ، ولم يجدوا لهم مأوى الا في جانب من مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام .. ويعيشون على الصدقات التي كانت ترد الى الرسول فيبعث بها اليهم ..

ويصف أبو هريرة حالهم فيقول : « كنت في سبعين رجلا من أهل الصفة .. ما منهم رجل عليه رداء ، أما بردة أو كساء قد ربطوها في أعناقهم » (١٥) .

وقد كان أبو هريرة رضي الله عنه أحد أعلام أولئك الفقراء من أهل الصفة .. وكان يصبر على الجوع الشديد حتى انه كان يلصق بطنه بالحصى من الجوع .. يطوى نهاره وليله من غير أن يجد ما يقيم

صلبه .. ويروى عن نفسه فيقول : « انى كنت ألزم رسول الله ﷺ بشبع بطنى ، حتى لا أكل الخمير ، ولا ألبس الجديد .. ولا يخدمنى فلان وفلانة ، وان كنت لأستقريء الرجل الآية من كتاب الله هى معى ، كى ينقلب بى فيطعمنى » (١٦) .

هؤلاء هم أهل الصفة .. وهذا كان حالهم .. فاذا كان هذا هو شاهد السنة فى رأى من يقول بأن التصوف منسوب الى أهل الصفة بالرغم من مخالفة هذا الرأى للقياس الصرفى .. فقد كفانا الامام القشيرى والدكتور التفتازانى مشقة الرد عليهم حين نفيًا نسبة انصوف الى هذه الفئة من الناس التى كانت على عهد الرسول ﷺ ..

ومرة ثانية نقول : اذا انتفى الدليل ، بطل المستدل عليه طبقا للقاعدة المشهورة ..

أما اذا كان المقصود من شواهد القرآن والسنة وحياة الرسول ﷺ وحياة صحابته الكرام .. هو التحلى بالأخلاق الفاضلة .. والزهد والتجرد عن زينة الحياة وشكلياتها ، وأخذ النفس بالتقشف والعبادة والأوراد والجوع والسهر فى الصلاة والتلاوة .. فان فى تعاليم الاسلام وأخلاقه ما يغنينا عن اختراع مسمى جديد ننضوى تحت رأيته بدلا من اسم الاسلام الذى ارتضاه الله ورسوله لنا .. وأطلقه علما علينا :

« هو سماكم المسلمين من قبل » (١٧) .

* * *

● من مصطلحات الصوفية :

للصوفية مصطلحات خاصة ، يتداولونها بينهم .. ويعرفها السالكون لطريقهم .. وقد عرض الامام القشيرى هذه المصطلحات وشرحها شرحا وافيا .. فقال : « اعلم أن من المعلوم أن لكل طائفة من

(١٦) المصدر نفسه ، ص ٣٧٩ ، والحبير — بفتح الحاء — من البرد

ما كان موشى مخططا .. يقال بردة حبير ، وبرد حبرة بوزن : غنية ..

(١٧) الحج : ٧٨

العلماء لهم ألفاظ يستعملونها .. انفردوا بها عن سواهم وتواطأوا عليها لأغراض لهم فيها ، من تقريب الفهم على المخاطبين بها ، أو تسهيل على أهل تلك الصنعة في الوقوف على معانيهم باطلاقها ..

وهذه الطائفة يستعملون الألفاظ فيما بينهم .. قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم والاجماع والستر على من باينهم في طريقتهم .. لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها .. اذ ليست حقائقهم مجموعة بنوع تكلف أو مجلوبة بضرب تصرف .. بل هي معان أودعها الله تعالى قلوب قوم .. واستخلص لحقائقها أسرار قوم ، ونحن نريد بشرح هذه الألفاظ تسهيل الفهم على من يريد الوقوف على معانيهم من سالكي طرقهم ومتبعي سنتهم « (١٨) » .

ومن هذه المصطلحات التي أشار إليها القشيري : الواقف ، والمقام ، والحال ، والقبض ، والبسط ، والهيبة ، والأنس ، والتواجد ، والوجد ، والوجود ، والجمع ، والفرق ، والفناء ، والبقاء ، والغيبة ، والحضور ، والصحو ، والسكر ، والذوق ، والشرب ، والمحو ، والاثبات ، والستر ، والتجلي ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، والمشاهدة ، والمعينة ، واللوائح ، والطوائع ، واللوامع ، والبوادر ، والهجوم ، والتلويح ، والتمكين ، والقرب ، والبعد ، والأشريعة ، والحقيقة ، والطريقة ، والنفوس (بفتح الفاء) ، والخواطر ، وعلم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ، والوارد ، والشاهد ، والنفوس (باسكان الفاء) ، والروح ، والسر ... الخ ..

ولهم مقامات هي مدارج أرباب السلوك : كالقبوة ، والمجاهدة ، والخواوة ، والعزلة ، والتقوى ، والورع ، والزهد ، والصمت ، والخوف ، والرجاء ، والحزن ، والجوع ، وترك الشهوة ، والخشوع ، والتواضع ، ومخالفة النفس ... الخ (١٩) ..

(١٨) الرسالة القشيرية ، مرجع سابق . ص ٣١

(١٩) المرجع السابق ص ٣١ - ٤٥

ولا يتسع أمامنا المقام للإسترسال في عرض كافة المصطلحات التي تعارف القوم عليها .. أو شرح كل منها - حتى لا ينتقل على القارئ غير المتخصص - فالمصطلحات كثيرة ، والمقامات عديدة .. ولكل طائفة منهم مصطلحاتها وأحوالها ومقاماتها ..

انما تهدف للإشارة بأن للصوفية مصطلحاتها التي خصت نفسها بها - حتى تكون معانى ألفاظهم مستبهمة على غيرهم - وأن لهذه المصطلحات تفسيرات وتأويلات تختلف عن جميع التفسيرات اللغوية المعروفة لهذه الكلمات .. غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها ..

* * *

ويوضح الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفقازاتي المقصود من كلمة « طريق » .. فيقول :

« كان الهدف أن يرسم الصوفية طريقا للسلوك يجتذبون به العصابة ويقولون لهم : ان عليكم أن تقبلوا عنى الطاعة وتسلكوا هذا الطريق » .. فتصوروا الى الله طريقا بدايته جهاد النفس .. ومراحله عندهم تعرف بالمقامات والأحوال .. ونهايته العرفان بالله ..

أما عن جهاد النفس .. فنحن مأمورون بهذا الجهاد لقوله تعالى :
« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين » (٢٠) ..
والسبيل .. هو الطريق ..

وكذلك فان كلمة « طريق » استخدمها هؤلاء العلماء من الصوفية بالرجوع الى القرآن الكريم .. وذلك يعنى أن مصدر الكلمة هو القرآن .. لأن كلمة « طريق » أو « طريقة » ذكرت في القرآن بهذا المعنى .

يقول تعالى : « وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » (٢١) ..

ويقول : « إذ يقول أمثلهم طريقة » (٢٣) .

ويقول : « مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين » (٢٣) .

ومجاهدة النفس .. تعنى عند الصوفية مراقبة النفس ومحاسبتها على الفعل .. ونحن نحتاج الى هذا المعنى خصوصا فى عصرنا .. ولو أن كل واحد منا حاسب نفسه عما قدم فى يومه لنفسه وللمجتمع .. وحاول أن يصحح أعماله لكان من وراء ذلك خير كثير ..

جهاد النفس — كما يقول الصوفية — يترتب عليه التحقق بالمقامات والأحوال ..

ولكن .. ماذا يعنون بالمقامات ؟ وماذا يعنون بالأحوال ؟
المقام — عندهم — هو الفضيلة الأخلاقية التى يجتهد المسلك لطريق الله من أجل تحقيقها : كالتوبة ، والزهد ، والصبر ، والتوكل ، والمحبة لله وللرسول ، وآل بيت رسول الله ﷺ ، وغير ذلك ..
فكل هذه المعانى مستمدة من القرآن الكريم .. ويعمل الانسان الذى يريد التكميل الأخلاقى على تحقيقها فى نفسه وهو ينتقل من مقام الى مقام فى سلوكه .. فاذا رسخت له التوبة ينتقل منها الى الصبر .. ثم الى التوكل .. ثم الى الرضا ، وهكذا ..
حتى اذا استوفى هذه المقامات وغيرها .. فانه يصل الى معرفة الله .. أعنى يصل الى معرفة الخالق تبارك وتعالى بأسمائه وصفاته .. ويرى الحق سبحانه وتعالى متجليا فى هذا الكون بهذه الأسماء والصفات .. وهى معرفة يطمئن لها قلب الانسان » (٢٤) .

ثم يقول فضيلته : « وكل معنى من هذه المعانى التى ذكرتها مستدل عليه بآيات من القرآن الكريم وبأحاديث للرسول ﷺ صحيحة .. حتى أن شيخ الاسلام ابن تيمية (ت ٧٧٨ هـ) — وقد كتب فى التصوف كتابات يجب علينا جميعا أن نقف عندها وأن نتفهمها — كتب رسالة تسمى بـ « التحفة العراقية » ، وكتب رسالة أخرى عنوانها

(٢٣) طه : ١٠٤ (٢٣) البقرة : ٩٧

(٢٤) انظر مجلة التصوف الاسلامى — مرجع سبقت الاشارة اليه .

« الصوفية » و « الفقراء » ، ورسالة أخرى عنوانها « رسالة في أمراض القلوب » •• مبينا أن التصوف هو علاج لأمراض القلوب •• يقول في « التحفة العراقية » : ان ما يتحدث عنه هؤلاء الصوفية من ضرورة مجاهدة النفس ، والتحقيق بمعاني التوبة والرضا والصبر والتوكل ، وحب رسول الله — ﷺ — وحب أهل بيت رسول الله •• كل أولئك انما يعتبر واجبا على كل مسلم •• وهذا لأنه لا يتصور أبدا أن المسلم يبتعد عن التخلق •• لأن التخلق كما بينا هو أساس العقيدة وأساس الشريعة ••

وخذ أى حكم من أحكام العقيدة والشريعة •• سنتبين أنه بدون الأساس الأخلاقى يصبح صورة لا روح فيها •• وقد قال ابن عطاء الله فى « الحكم » : الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الاخلاص فيها •

وهذا المعنى مستمد من قوله تعالى : « **ألا لله الدين الخالص** » (٢٥) اذن •• الاخلاص فى الأعمال الدينية ، والاخلاص فى الأعمال — أيا كانت لأننا لا نفرق بين عمل دينى وعمل دنيوى — هو أساس التصوف (٢٦) ••

ويخلص فضيلته الى أن : « التسمية لا شأن لنا بها — وهذا رأى — لأن التسمية مسألة شكلية •• حتى أن ابن تيمية كان يستخدم عدة تسميات •• وكان يستخدم كلمة « التصوف » كما كان يستخدم كلمة أخرى لها دلالة هى « علم السلوك » فى الرسائل والمسائل •• وكذلك شرح ابن القيم كتاب « منازل السائرين » للإمام الهروى الأنصارى الحنبلى •• وكان عنوان الشرح « مدارج السالكين •• بين منازل اياك نعبد و اياك نستعين » •• وهو من أجل ما كتب فى التصوف •• والحقيقة •• أن ابن القيم وأستاذه ابن تيمية من العلماء الذين كانت لهم مع الله أحوال قطعا •• ولا يتصور أن يكون ابن تيمية أو ابن القيم ممن لم يمارس الرياضات الروحية والأخلاقية » (٢٧) ••

(٢٦) المرجع السابق •

(٢٥) الزمر : ٢

(٢٧) نفس المرجع •

وأخيرا •• يتساءل فضيلة الدكتور : لماذا الاختلاف بين الطرق ؟
ومنى ظهرت هذه الطرق ؟ •• ثم يجيب على تساؤله فيقول :
« ظهرت الطرق في العالم الإسلامي ابتداء من القرن الثالث
الهجرى •• وأحب أن أقول : ان كلمة « طرق » لا تعنى أكثر من
مدارس تعرف بأسماء مؤسسيها •• فنحن أحيانا ننشئ مدرسة وننسبها
الى مؤسسها ، وفى دوائر الجامعات مثلا نقول : فلان من الأساتذة ،
لأن له منهجا أو طريقة أو مدرسة فى توجيه الطلاب أو فى البحث
العلمى ••

وكذلك كثير من العلماء الصوفية الذين قادوا وأرشدوا تلاميذهم
الى كمال العلم والعمل •• نسب تلاميذهم اليهم •• فعرفت مدارسهم
أو طرقهم بهذه الأسماء المميزة •• فمثلا الخراز (ت ٢٧٩ هـ) من كبار
أوائل الصوفية ، عرف تلاميذه بالخرازية •• وعرف أتباع الجنيد
بالجنيدية •• وهكذا ••

أما الطرق المتأخرة التى ظهرت منذ القرن السادس الهجرى ••
ومن أبرزها طريقة عبد القادر الجيلانى (ت ٥٦١ هـ) وكان عالما فاضلا
يحترمه ابن تيمية ويذكره كثيرا •• فقد عرف أبناؤه بالقادرية ، وكذلك
أحمد الرفاعى (ت ٥٧٠ هـ) عرف أتباعه بالرفاعية •• وهكذا « (٢٨) ••
ويختتم فضيلة الدكتور حديثه بقوله : « فالطريقة الصوفية مدرسة
تلتف حول فكر وتوجيه عالم يوجه تلاميذه الى كمال العلم والعمل ••
لا أكثر من هذا ولا أقل •• وحين ظهرت الطرق فى أول أمرها كانت
بمثابة مدارس للتوجيه الروحى والأخلاقى والسلوكى ، دون أن يكون
بين هذه المدارس تعارض — لا فى العقيدة ، ولا فى الشريعة —
انما الاختلاف راجع الى طريقة التربية والأخذ بأيدي التلاميذ الى طريق
الحق ، والى الكمال الخلقى » (٢٩) •

* * *

لقد تعددت الآراء فى مسألة التصوف ، وسوف نتعدد ••
واختلف الناس فى شأنه ما بين مغال فى تعصبه له ، ومغال فى
تعصبه ضده ••

• (٢٩) نفس المرجع السابق •

• (٢٨) المرجع نفسه •

ونقول : اننا لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا تمسكت بكتاب
الله وسنة رسوله ، واذا دعت الى صفاء النفس ونقاء العقيدة ..
اننا لا نعادي الصوفية ولا نحاربها اذا دعت الى التجرد من علائق
الدنيا — دون مقاطعتها — وعملت على التفرغ لطلب الآخرة دون القعود
عن عمارة الدنيا ..

اننا لا نعادي الصوفية اذا كانت تدعو الى الرهبة من الخالق
لا من الخلق .. واذا ما جعلت يقينها أن ما يصيبنا لم يكن ليخطئنا ،
وما أخطأنا لم يكن ليصيبنا ..

اننا لا نعادي الصوفية اذا دعت الى ارجاع كل الأمور الى الله
تعالى دون خوف من مخلوق لا يملك لنفسه نفعا ولا أذى ..
وأخيرا .. اننا لا نمكّ معاداة الصوفية أو محاربتها .. اذا كان
السالكون طريقها أطهار الذيل ، أعفاء النفوس ، زاهدين في كل ما في
أيدي الناس ، مطمئنين الى ما عند مسبب الأسباب ..
والصوفية — حين تحرص على التزام هذا النهج — تصبح حقا
ذروة الايمان في التقى والجرأة ، والاقدام والاخلاص ..
وأين هو العاقل الذي يريد لنفسه أن يحارب أو يعادي هذه
المبادئ الفاضلة ؟ !

أما حين تحيد الصوفية عن أمر الله .. وحين تعرض عن كتابه
وسنة رسوله فتستورد العقائد الدخيلة على الاسلام كوحدة الوجود ..
أو الحلول .. أو الاتحاد !!

أما حين تتمسك بالخرافات والأساطير !!
فاننا لا نمكّ أبدا مسالمتها أو مهادنتها .. ولا نستطيع أبدا السكوت
على انحرافاتنا وزينها .. مهما كان الثمن غاليا !!
ان الحرص على سلامة العقيدة .. كما أمر بها الله وجاء بها
رسوله .. أئمن وأعلى عندنا من كل عاطفة ، ولو كانت عاطفة القرابة
أو وشيجة الدم !!

ومجمل القول : اننا لا نعادي الا الخرافة والأسطورة في الدين ..
ولا نحارب الا منازعة الله تعالى في خصائصه ، وإشراك عباده
في صفاته ..